

الأصول اللغوية للمناهج النصية في الدرس اللساني-البنويّة أنموذجاً-

Linguistic origins of textual curricula in linguistic
-structural model-

د. عون الله خديجة* (1)

المركز الجامعي الشريف بوشوشة آفلو-الأغواط-،(الجزائر)

البريد الإلكتروني: k.aounallah@cu-aflou.edu.dz

تاريخ النشر: 2023/06/17

تاريخ القبول: 2023/06/01

تاريخ الإرسال: 2023/03/12

الملخص:

تعدّ مسألة المنهج عماد البحث وأساسه في كل المجالات المعرفية والعلمية، واختياره يرتبط أولاً وأخيراً بطبيعة الموضوع محل البحث، وتطوره وتغيره مرهون بتغير النصوص، وتعدد أجناسها وأنواعها وأساليب دراستها، وتحليلها وقراءاتها، وعليه ظهرت مناهج وتيارات معاصرة أثرت الدرس اللساني وذلك تزامناً مع اللسانيات السويسرية التي كان لها الدور الفعال في التأسيس للتحويلات المنهجية والانطلاقة الفعلية لهذه المناهج، مما جعلنا نتساءل عن تأثير المقاربة اللسانية على دراسة النص، وهذا ما تهدف إليه هذه الدراسة محاولة اكتشاف طبيعة التضافر المعرفي بين اللسانيات والمناهج النصية، ومدى تأثير اللسانيات السويسرية عليها، وعن الجذور اللغوية التي تمتد منها البنوية.

الكلمات المفتاحية: الأصول اللغوية، المنهج النصية، الدرس اللساني، البنوية.

الملخص باللغة الأجنبية :

Abstract:

The issue of curriculum is the mainstay and basis of research in all fields of knowledge and science and its choice relates first and foremost to the nature of the topic in question, and its evolution and change depends on the change of texts In conjunction with Swiss linguists, who have been instrumental in establishing systematic transformations and the actual launching of these curricula, they have developed contemporary curricula and curricula that have influenced the lesson. This left us wondering about the effect of the linguistic approach on text study. And this is what this study aims to try to discover the nature of cognitive synergies between linguistics and textual approaches, and the extent to which Swiss linguistics influence them, and the linguistic roots of structuralism.

* عون الله خديجة

Keywords: Linguistic origins, textual curriculum, linguistic lesson, structural

مقدمة :

شهد الخطاب في الدرس اللساني والأدبي رجاءات وتحولات كبرى في العقود الأخيرة من القرن العشرين، فكان أبرزها اهتمام اللغويين الباحثين بالنص والغوص في أعماقه قديما والتركيز على القارئ الذي يكتب لأجله ومن أجله، حيث؛ تعدد المداخل التي مكنت الدارس من الولوج إلى عالم النص الأدبي عبر منافذ متعددة، والتي نجدها تتباين مرات عدّة في نظرتها للنص تحليلا وتقديرا ، وتتضارب وتتشاكل في ضروب متعددة، إلا أن هذه المناهج والآليات لم تتخاذل في رفع شعار سلطة النص وأمام مجموعة من العلائق منها النص والقارئ، اللسانيات والنص، علم اللغة والأدب، اللسانيات والنقد.

ومما شك فيه أن العلوم تراكمية إذ لا تلبث نظرية أو فلسفة ما في الضمور والانكماش حتى تبدأ ملامح نظرية جديدة في التشكل، قد تكون متنافرة مع سابقتها رافضة لها وقد تكون متقاطعة معها، أو تبدأ من النقطة التي انتهت إليها سابقتها¹، وهو حال المناهج الحديثة، حيث نشأت في المناخ الثقافي الأوروبي، ذلك المناخ الذي أفرزته عوامل اجتماعية وتاريخية، متعلقة بالأوضاع التي شهدتها أوروبا منذ القرن التاسع عشر، وبعوامل نفسية أخرى متعلقة بحياة الأدباء أنفسهم، وبأفكار فلسفية مصدرها عقول العلماء، وتلك الظروف كلها مجتمعة لا تمت بصلة للبيئة الفكرية التي كانت شهدتها البلاد العربية آنذاك.

ومن بين هذه المناهج -المناهج السياقية - (كالمنهج التاريخي والاجتماعي والنفسي) التي تميّز بها النصف الأول من القرن العشرين، ليسلم مفاتيح مملكته إلى اللسانيات الحديثة، لتصبح مناهج نصانية، تنطلق من النص وتعود إليه، وبما أن - المناهج النصانية - (بنيوية أم سيميائية...)، تنبني على رؤية فكرية، للوجود والكون والتاريخ والإنسان والغاية من الحياة، قبل أن تكون خطوات منتظمة مصطلحات إجرائية، يمكن إرجاعها إلى هذه النظرية اللسانية أو تلك، فإن دراستنا ، تحاول أن ترصد الجذور الفكرية للمنهج البنيوي ، ثم تركز بعدها على أصوله اللسانية، بصفة عامة، والنحوية بصفة خاصة، هادفة من وراء ذلك، على لفت انتباه نقادنا المحدثين، إلى ضرورة التسلح بثقافة لسانية متينة، قبل تبني أي منهج.

إشكالية الدراسة :

شهدت المناهج النقدية الحديثة توسعا وانتشارا كبيرا كالمنهج البنيوي والسيميائي... واستطاعت أن تفرض نفسها على الساحة النقدية الأدبية، ولا يخفى ارتباطها باللسانيات حيث أثرت وتأثرت بها، ومنه نطرح إشكالات لعل الإجابة تكون في توسعنا للموضوع.

- فماهي الأصول الفكرية اللغوية للمناهج النصية النقدية المعاصرة ؟ وهل يمكن أن تخدم هذه المناهج النصوص العربية ؟

- إذا سلّمنا بفرضية أن اللسانيات أعطت نقساً جديداً للنقد ومنحته نوعاً من الحراك بعدُ جمود، ففيما تتمثل الإفادات التي منحها اللسانيات للنقد الأدبي؟

- كيف لنا أن نرصد الأصول اللغوية للمنهج البنيوي في الدرس اللساني؟

نسعى جاهدين في نهاية هذا البحث استخلاص مجموعة من النتائج كإجابة عن التساؤلات السابقة وتشكيل صورة واضحة عن أثر اللسانيات على الممارسة النقدية والخلفيات اللغوية للمناهج النصية؛ متبعين المنهج الوصفي التحليلي في إخراج وتقديم هذا البحث لكم، ليكون إضافة علمية للمشتغلين على الأدب ونقده ومنهجه.

أهداف الدراسة:

ومنه تراءى لنا أن نخط الغرض من هذا البحث للإبانة عن الأصول اللغوية التي انضت الدرس النقدي في مجال تحليل اللغة و النص الأدبي، مما أفسح المجال أمام نشوء المناهج النقدية المعاصرة، كما يهدف هذا المقال أيضا إلى إيضاح الخلفية اللسانية التي أطرت بحوث النقاد المعاصرين وتوضيح التغيرات والتحويلات التي شهدتها النص الأدبي بتطبيق تيارات ومناهج نقدية معاصرة، والجذور التي امتدت منها وذلك تزامنا مع ظهور اللسانيات دي سوسير، مع التأكيد على أن البنيوية عمل يقوم على أساس التحليل التركيبي، وأن تحليل أي عنصر من عناصر اللغة لا يمكن أن يتم بمعزل عن البعض الآخر.

1. الدراسات اللسانية والمناهج النصية :

1.2 اللسانيات وإشكالية المنهج

قد شهد عالمنا الحديث ابتداء من القرن العشرين نهضة لغوية واسعة عند الغرب قد أسست لنظريات بحثية اكتسبت مكانة عالمية لشمولها وبعد تأثيرها، وهذه اللسانيات النظرية (العامة) تبحث من خلال البحث في نظريات اللغة ونماذجها المتفرعة عنها، وكيفية معالجتها للبنية اللغوية سواء أكانت تلك النظريات اللغوية في الماضي أم الحاضر، وقد جعلت من دراسة اللسانيات في اللغات المختلفة واقعا ملموسا لا سيما عند من التحق بدورهم وتأثر بهم، أو ترجم أعمالا من علمائنا المحدثين، وقد يكون من الصعب تحديد البدايات الأولى لانتقال الفكر اللغوي الحديث إلى ميدان التفكير اللغوي في العالم العربي، ولكن الذي لا شك فيه أن اللسانيات تسمية حديثة نسبيا لمعرفة قديمة ضاربة في جذور الحضارة والفكر

الإنسانيين، فقد ارتبطت بالتفكير الأول في المسألة اللغوية باحثة ومستكشفة خصائص اللغات في بناها الصوتية والصرفية والتركييبية والمفردات خدمة لأغراض اجتماعية دينية²، ثم تطورت هذه المعرفة مكتسبة طرائق منهجية في التعامل مع ظواهر متعددة في اللغات مع نهاية القرن التاسع عشر في أوروبا وبداية القرن العشرين أطلق مصطلح عام عرف باللسانيات يهتم بدراسة اللسان البشري دراسة علمية موضوعية، اكتشفت مع فردينان دي سوسير وتلامذته من أعلام البنيوية الشكلية بخاصة لويس يلمسلف (Louis Almsilv) صفة المثولية والاستقلالية عن سائر العلوم الأخرى³.

ويقصد باللسانية : « العلم الذي يدرس اللغة الإنسانية دراسة علمية تقوم على الوصف ومعاينة الوقائع؛ بعيدا عن النزعة التعلیمیة والأحكام المعيارية »⁴، وإذا كانت دراسة اللغة في حد ذاتها شغلت المفكرين والباحثين، فإن دراسة الأدب الذي اتخذ من اللغة صورة له نالت حظا أوفر من العناية والاهتمام ذلك أنها لغة ترتبط وحدتها بعلائق متعددة ومتشعبة وتتأثر بمؤثرات داخلية وخارجية، ومنه وضع علم اللغة الحديث مجموعة من المناهج لدراسة اللغة فيها تصورات مماثلة أو مشابهة بعض الشيء للمناهج في الدراسات العربية القديمة⁵.

ويقصد بالمنهج : « طائفة من القواعد المصوّغة من أجل الوصول إلى الحقيقة في العلم »⁶، فهو بوجه عام وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة لاعتباره خطة منظمة لعدّة عمليات ذهنية أو حسية بغية الوصول إلى كشف حقيقة أو البرهنة عليها⁷، ويراد بمناهج البحث الطرق التي يسير عليها العلماء في علاج المسائل والتي يصلون بفضلها إلى ما يرمون إليه من أغراض⁸، ويذهب معظم الباحثين إلى أنّ « قضية المنهج هي القضية الأولى في كل حقول المعرفة، إذ ترتبط نتائج كل علم بالمنهجية المتبعة فيه، ولذلك فإننا لا نكاد نجد في هذا العصر علماً دون منهج خاص للتعامل معه، من هنا احتل المنهج أهمية كبيرة، وغدا هاجساً مؤرقاً »⁹، وقد ثبت أنه لا يكمن البحث في أية ظاهرة وتحليلها تحليلاً علمياً دون الأخذ بمنهج يناسب الظاهرة المدروسة؛ فالمنهج يساعد الباحث في الوصول إلى مجموعة من النتائج بأقل جهد ووقت وبطريقة شبه مضمونة حيث لا يمكننا نفي أهميته بوصفه نوعاً من الخبرة، أو بوصفه منظومة متكاملة.

فالإشكالية الحديثة ليست البحث عن خلفيات المناهج اللسانية فقط كونها تقوم على سند فلسفي قبل أن تكون مجرد إجراء عملي، بل الإشكال أيضاً في كيفية تقديمها للقارئ ضمن الكتابات اللسانية العربية، دونما شرحها له أو إلقاء الضوء عليها وليس على تطبيقاتها ونتائجها، ولعل هذا ماجعل قضية المناهج تعدّ من القضايا الشائكة التي كانت وما تزال تحظى باهتمام الكثير من أهل الدراية في مجال البحث.

1.2 اللسانيات و أثرها على المناهج النقدية المعاصرة:

تأسست الدراسات النقدية المعاصرة على المبادئ التي قامت عليها الألسنية، إذ يمكن إرجاعها في نشأتها الأولى إلى الانفجاريات المهمة لفرديناند دوسوسير Ferdinand De Saussure، ومن هنا لا يمكن أن تفهم هذه الدراسات إلا من خلال خلفية من الألسنية الحديثة، فاللسانيات و النقد الأدبي " لا يلتقيان من حيث كون الوسيلة و الهدف واحدة فحسب، و لكن من حيث إن اللسانيات تكشف للنقد الأدبي عن بنية الأداة التي يستخدمها الأدب عموماً، وتكشف له بالتالي حركية عملها و كيفية هذا العمل، و ذلك من أجل أن يكون هذا الكشف نورا يستضيء به الأدباء و الكتاب و الشعراء عندما ينحرفون عن درب اللغة الاتصالي إلى درب اللغة الجمالي¹⁰، و في الحقيقة أن هناك عددا كبيرا من الدارسات النقدية المعاصرة التي ارتكزت نظرياتها الأدبية على النظريات اللسانية، من ذلك مثلا الشعرية البنوية التي صنفها الدارسون صنفين: الشعرية اللسانية، و أهم أعلامها جاكسون Roman Jakobson و الذين سلكوا مسلكه، و الشعرية اللسانية البلاغية، و أهم أعلامها جان كوهن و من سلك طريقه؛ لأن الأهم، في نظر هؤلاء، هو اللغة في وظيفتها الجمالية، و من هنا، تكون الدراسة الأدبية عندهم، هي الاهتمام بالجانب الشكلي، أي الاهتمام بالبنيات اللغوية للنص الأدبي. و هذا مفاده أن كل " دراسة شكلية للغة تستوجب ضرورة العودة إلى اللسانيات والاستعانة ببعض أدواتها الإجرائية التي توظفها لدراسة الوقائع اللغوية¹¹.

و المؤكد أن منطلق اللسانيات و الأدب و النقد الأدبي هو منطلق واحد ألا وهو اللغة، ولكن الحقيقة التي لا مجال للشك فيها هي أن المناهج اللسانية الحديثة قد دخلت مجال الأدب، وبالخصوص مجال النقد الأدبي المعاصر الذي يتكئ على الأدب ليكون مادة له و أن إستعادة النقد الغربي المعاصر من مناهج اللسانيات هي التي أعطت المناهج النقدية المعاصرة قوة الاستمرارية والحيوية و النشاط، من أجل بناء صيغة علمية واضحة، تلك الصيغة التي يسعى النقد الأدبي المعاصر إلى تحقيقها ليكون علما قائما بذاته... وهكذا¹².

وفي الحقيقة أن المناهج اللغوية و الأدبية و النقدية حقول تستفيد من بعضها البعض، وعليه، فقد قدم التحليل اللساني للنقد الأدبي المعاصر إسهاما تمثل في الدقة الموضوعية و الكشف و الإثارة، فلولا اللسانيات ما كان بإمكان البويطيقا " الشعرية" المعاصرة أن تحدد بشكل مضبوط، موضوعها، ولا أن تستخلص مقولاتها و قوانينها و لولا اقتراب اللسانيات من النقد الأدبي الذي يقدم لها الأدب كظاهرة

توصيلية جمالية، لما استطاعت أن توسع آفاق مناهجها، و تعمق نظرياتها، و تجعلها أكثر تطوراً و انفتاحاً و دقة و موضوعية.

فالعلاقة بين العلمين معالقة إجرائية أشبه بعلاقة الرياضيات بعلوم الفيزياء، إذ لا يمكن لمعالجة نقدية علمية دون التحليل اللساني، وهذا التواشج الفكري بين حقل اللغويات وحقل الأدبيات هو ثمرة النقد اللساني الذي « يعالج جزءاً معيناً من قضايا اللغة أي يعالج مستوى أو أكثر من مستويات اللغة، سواء كان صوتياً أم تركيبياً أم دلالياً أم معجمياً»¹³، و هكذا تلونت المناهج النقدية المعاصرة بلون اللسانيات، و استفاد النقد الأدبي من تقنياتها حتى أصبح علماً قائماً بذاته، و غدت الخلفية اللسانية هي التي تؤطر بحوث النقاد المعاصرين، حيث استفاد الناقد رولان بارت من جهود الألسنية، فاعتمدها لوصف المظاهر الاجتماعية الحياتية، كالأزياء، و الأثاث، و الطعام، و الصحافة، و تبنى ميشال فوكو النموذج اللغوي في وصفه لتعاقب مراحل المعرفة في أوربا، كما أن النموذج اللغوي كان عموداً نهض عليه التحليل الأنثروبولوجي عند ستراوس، إن كان في تحليل الأسطورة أو بنية المجتمعات البدائية، و هو لم يبرح يذكر بالمنحدر الألسني للإنثربولوجية البنوية¹⁴.

وهذا التأثير أدى إلى تطور ملحوظ في النظريات النقدية، و تحوّل كبير في مناهج تناول النصّ الأدبي، وكان لعلم اللسانيات دوراً مميّزاً في التأسيس لهذه التحولات المنهجية، و بزوغ مناهج نقدية معاصرة (نسقية) تسعى إلى مقارنة النصّ مقارنة داخلية بمعزل عن ما هو خارجي و تركز على إعطاء السلطة للنص بوصفه بنية لغوية مكتفية بذاتها (البنوية الأسلوبية السيميائية، الشعرية...).

3.2. المناهج النصّية:

بما أن اللسانيات تعد علماً صلباً وهي في ذلك أقرب إلى الأدب من النماذج العلمية التي أرادت الدراسات العلمية اكتساب دقتها وصرامتها... وبما أنّ اللسانيات السوسورية تثير طريقة جديدة في طرح المسألة في العلوم التي تبحث في الدليل، فيجب إذاً أن نبدأ من هنا لفهم مناهج ورهانات الدراسة النصّية¹⁵، فهذه المناهج النقدية المعاصرة دعا أصحابها إلى عزل النصّ الأدبي عن العوامل الخارجية، أي الثورة على المنهج السياقي، وتهيئة الأرضية للمنهج النصّي أو ما يصطلح عليه حالياً بـ «الدراسات البنوية»¹⁶، فاشتغالها منصب على داخل النصّ كنسيج لغوي بعيداً عما يحيط به.

و أبرز ما يميز المناهج النسقية أو النصّية أو النصّانية فكل هذه المصطلحات أو المفردات الواصفة لهذه المناهج تحيل إلى معنى واحد فهي في الأصل اتجاهات انبثقت من علم اللغة (اللسانيات)، وتمثلت

مباحثه ومناهجه في البنيوية والسميائية والتفكيكية، وإنما دفع إلى دخول هذه الاتجاهات ميدان النقد على الرغم من أن مباحثها لغويةً علماً وفلسفيةً منهجاً، فإن النقد ضرب من الفن وسيلته اللغة فلما قام علم دقيق للغة كان من الطبيعي أن تكتسح مباحثه ميدان النقد و هكذا كان، وشاب هذا الاكتساح غير قليل من اضطراب المصطلحات واختلاط الرؤى، أما أبرز منطلقات هذه الاتجاهات :

أولاً: تقوم على معطيات علم اللغة وتعتمد على مناهجه

ثانياً: الاشتغال على النص وحده من الداخل بمعزل عن كل المتعلقات الخارجية المحيطة به، أي (النص بيئة مغلقة)

ثالثاً: تسقط عنصر التقييم أي الموقف الجمالي من النص أو الحكم على النص له أو عليه من عناصر النقد الأدبي.

2. البنائية والأصول اللغوية :

1.3. المنهج البنيوي:

من المستوغات التي جعلت البنيوية تبرز في الساحة الأدبية هو ردها على هيمنة الدراسات السياقية بحمولتها النفسية ومرجعيتها التاريخية والاجتماعية، فما البنيوية؟

من تكوينها الحرفي، تُشتق كلمة بنيوية من لفظة "بناء" أو "بنية". وتشير الدلالة اللغوية لكلمة "بنية" على أنها موضوع منتظم، له صورته الخاصة ووحدته الذاتية، فحين نتحدث عن البناء الاجتماعي أو بناء الشخصية أو البناء اللغوي، فإننا نشير بذلك إلى وجود نسق عام، أهم ما يتصف به هو عنصر النظام، فالبناء هو صورة منظمة لمجموعة من العناصر المتماسكة، ومن ثمة، فإن التعريف المبسط للبناء أو البنية يقوم على اعتباره "مجموعة من العلاقات الثابتة بين عناصر متغيرة يمكن أن ينشأ على منوالها عددٌ لا حصر له من النماذج والمعاني"¹⁷.

وبالتالي، فإن أي زيادة في المبنى يفضى إلى زيادة في المعنى؛ إذ يؤدي كل تحول في البنية إلى تحول في الدلالة؛ لأن كلمة بنية في أصلها تحمل معنى المجموع والكل، وأنها عبارة عن عناصر متماسكة، يتوقف كل منها على ما عداه، ويتحدد من خلال علاقته بما سواه .

حيث ظهرت مع "دي سوسير" عندما قام بالنظر للغة على أنها نظام ونسق، وتقوم على أنّ القضية الأساسية عند البنيوية هي أن كل اللغة (كل النصوص) بناء لمعنى مأخوذ من معجم ليس لمفرداته معان

خارج البناء الذي يضمها¹⁸، فتتظر إلى النص على أنه كيان مغلق، ومنعزل عن العالم الخارجي، عرفها (ميشال فوكو): «إنه من الصعب إعطاء مفهوم للبنوية، وذلك لأنها تجمع اتجاهات ومباحث وطرقا مختلفة، إنها مجمل المحاولات التي تقوم بتحليل ما يمكن تسميته بالوثيقة أي مجمل العلامات وآثار الإنسان التي تركها خلفه، وما زال يتركها ليوثنا هذا¹⁹»

أما (كلود ليفي شتراوس) Claude Lévi-Strauss فيقر بكل بساطة أن: «البنية تحمل -أولا و قبل كل شيء- طابع النسق أو النظام فالبنية تتألف من عناصر يكون في شأن أي تحول يعرض للواحد منها أن يحد تحولا في باقي العناصر الأخرى²⁰» فالبنية تتميز بوحدة النظام وتماسكه، فتحوّل أي عنصر داخل هذا النظام يقتضي بالضرورة تحول في باقي العناصر، عليه فالمنهج البنائي طريقة يعالج بها الناقد الأثر الأدبي معالجة لغوية و شكلية تتمثل في البحث عن العناصر أو الوحدات اللغوية الدالة، و علاقتها بمجموع تنظيم الأثر، و يعطى لها الأولوية في التحليل وفي إنشاء النماذج المستقاة من ذهن الناقد و من الوحدة المنطقية القائمة في بنية الأثر، فيعتمد في دراسة الأدب على النظر في العمل الأدبي في حد ذاته بوصفه بناءً متكاملًا بعيدا عن أية عوامل أخرى، أي أن أصحاب هذا المنهج يعكفون من خلال اللغة على استخلاص الوحدات الوظيفية الأساسية التي تحرك العمل الأدبي²¹.

فالمبادئ اللغوية الأولية التي كرس لها مدرسة جنيف جهود - بريادة فرديناند دوسوسير- تعد نقطة الانطلاق، و حجر الزاوية في المنهج البنوي، إضافة إلى المدارس اللغوية الحديثة الأخرى، كما أن ميراث الشكلائية يعد رافدا من الروافد الكبرى لنظرية البنائية؛ لأن الحركة الشكلائية مارست تأثيرا واسعا على كل المدارس و الاتجاهات النقدية التي جاءت فيما بعد، سواء في الأقليم الذي ولدت فيه، أو في مكان آخر من العالم، و هذا يعني أن النقد اللغوي الذي دعت إليه الشكلائية تعدى المحلية و الظرفية، و عانق كل ما هو شمولي و عالمي، فالبنوي عندما يحلل النص يقف عند العناصر اللسانية المتمثلة في المستوى الصوتي من حيث دراسة الحروف ووظيفتها الموسيقية من إيقاع ونبرة و تنغيم، والمستوى الصرفي الذي يهتم بدراسة الوحدات الصرفية للكلم ووظيفتها في التركيب اللغوي، فالمستوى المعجمي الذي يدرس الكلمات للكشف عن دلالاتها أما المستوى النحوي فيهتم بإطار تأليف و تركيب الجمل، والمستوى الدلالي فيقف على المعاني المباشرة و غير مباشرة، انطلاقا من هذه المستويات يتجلى إتكاء المنهج البنوي على معطيات الدرس اللساني.

2.3. الخلفيات والأصول اللغوية :

أ/ الأصول الفلسفية:

إذا أردنا الحديث عن البنيوية والبحث عن أصلها الفلسفي فقد قامت على أثر خلاصته جدل كان قائم بين الفلسفة المثالية و الفلسفة المادية، حيث أخذت البنيوية قبسها النقدي من ذلك الجدل حول قضية الحقيقة والوجود²²، فقد شهدت الفلسفة الغربية ابتداء من منتصف القرن 17 ميلادي جدلا صاخبا فيما يخص مشكلة الحقيقة الإنسانية انقسم الفلاسفة على إثرها إلى فريقين، يرى أولهما أن مصدر الحقيقة يكمن في خارج الأشياء، حين أن الثاني يرى أنه يمكن داخل الأشياء، وجاءت المناهج النقدية في رحلتها السياقية والنصانية ابتداء من المنهج التاريخي والانطباعي وانتهاء بالتفكيك والتلقي، هذه المناهج النقدية قامت على انقراض ثنائية فلسفية هي ثنائية الداخل والخارج.

ويرى بشير تاويريريت أن البنيوية استعارت مثالية كانط (Immanuel Kant) في فحصها لبنية النص من الداخل، وقد ترتب على هذا النظر البنيوي إعطاء الأسبقية للبنية بدل الوظيفة، إلا أنها وفي نهاية المطاف تحرص على النفاذ إلى مضمون النص الدلالي، وهو ما يطابق على وجه التحديد وظيفته وذلك من خلال بنيته التركيبية بكل مستوياتها اللغوية²³، كما أخذ عن علاقة البنيوية بالأفكار الكانطية قول كريستوفر نوريس في كتابه الموسوم التفكيكية النظرية والتطبيق: « فالبنيوية- مثل فلسفة كانط- تبحث في الأساس الشامل اللازماني الذي ترتكز عليه المظاهر الخارجية للتاريخ، وهذا النسق سابق على الأنظمة البشرية بحيث تستند إليه تلك الأنظمة زمانيا ومكانيا، أي أن هذا النسق قبلي بمعنى ما شابه لما نجده عند كانط²⁴».

فما يميز البنيويين هو ميلهم إلى فكرة النسق الشامل والأطر والقوالب التي وضعوها ذات طبيعة عقلية، ومنه فالبنيوية ظهرت في سياق فلسفي ظهرت فيه مختلف التيارات الفلسفية الماركسية والوجودية وذلك كون الموضوع المشترك بينها وبين هذه التيارات هو اعتبار الإنسان بؤرة الاهتمام الرئيسي والقيمة الأساسية مع وجود اختلاف ما يتعلق بالمنطق الفلسفي بالإضافة إلى تركيز الماركسية على أهمية التاريخ وإعطاء الفرد دورا فعالا في تغييره²⁵، ومنه يمكننا القول أن البنيوية تختلف عن الماركسية في طريقة رؤيتها إلى الإبداع ولغته ونسجه بالإضافة إلى أن الماركسية تهتم بشكل الإبداع لا بمضمونه وتعد المضمون أمرا واقعا بالضرورة.

ب/ الأصول اللسانية اللغوية:

لقد كانت اللسانيات الحديثة منطلقا للمناهج النقدية النصية التي تعددت اتجاهاتها الفكرية، و في ظل ذلك الأفق الواسع نلاحظ تأسيسها قاعدة متينة لأهم و أغلب المناهج في مقدمتها البنيوية، حيث أشير إلى أن دوسوسير في عزله للغة عن باقي العلوم الأخرى قد نحا بها نحو الاستقلالية بعدّها نظاما قائما بذاته

و ذلك من خلال تأسيسه لعلم اللغة الحديث، و هو ما حاكته البنيوية حين قامت بعزل بنية النص و مقاربتها داخليا بعيدا عن السياق الخارجي، ومنه يعرف دوسوسير اللّغة على أنّها: « نظام كل عناصره متماسكة، أي فيه يقتضي كل شيء الآخر بشكل متبادل، وفيه كل عنصر يتحدد من خلال موقعه في الشبكة الكلية للعلاقات، وأكثر من ذلك تحصل كل علامة مفردة على قيمتها من خلال هذه الشبكة، و من خلال اختلافها عن كل العلامات الأخرى للنظام ذاته²⁶»، فنلاحظ أن هذا التعريف يتطابق كليا مع ما ركزت عليه البنيوية حين نظرت إلى العلاقات الداخلية التي تربط بين الكلمات، بحيث يحقق كل عنصر هدفه من خلال علاقته بما عداه من بقية العناصر، لكي يتسنى لنا فهم المنهج البنيوي لابد من الرجوع إلى الأصول الأولى التي تتمثل في:

- أولوية البنية أو النسق: فالبنية نظام أو نسق من العناصر المتألّفة فيما بينها بحيث لا يمكن أن يغير أو يبدل أو يعدل أي عنصر دون أن تتغير معه طبيعة النظام كله فليست البنية إذا هي هذا العنصر أو ذلك في معزل أدبي، كما تتألّف هذه العناصر وتضافرها لا تحكمها قوانين خارجة عن بنية النصّ فالقصيدة مثلا: تتألّف فيها جملة من العناصر، كالوزن والصورة والإيقاع الداخلي، والرؤيا والانفعال والموقف الفكري والعقائدي، فهذه العناصر يحكمها نظام داخلي، يمكن في البنية الشكلية للقصيدة، وقل مثل ذلك في القصة والرواية... وبالتالي فإن الأولوية تعطي لكل ما يشكل بنية بالمفهوم السالف الذكر²⁷.

- اللغة نظام أنظمة: ويعني ذلك أن اللغة نظام لأنظمة متعاقبة ومتشابكة، كالنظام الصوتي والمعجمي والصرفي والنحوي والدلالي.. فكل نظام من هذه الأنظمة، هو في حقيقته بنية له قوانينه الداخلية الخاصة به، وهو في حقيقته يكون بنية صغرى، ضمن البنية الكبرى التي هي اللغة، وقد انتقل هذا المفهوم إلى المنهج البنيوي في النقد، حيث اعتبر النصّ الأدبي لغة فنية خاصة، يمكن أن تحلل أنظمتها أو بنياتها: الصوتية والمعجمية والصرفية والنحوية والدلالية²⁸.

- ثنائية اللغة والكلام: تعد نظرية دي سوسير هي المنبع الأول للبنيوية التي قامت بالتفريق بين مصطلح اللغة والكلام فكان تعريفه اللغة على أنها نظام وبنية النواة التي انطلق منها الفكر البنيوي على أن اللغة نظام من العناصر المعتمد بعضها على بعض تتبع قيمة كل عنصر من وجود العناصر الأخرى في وقت واحد²⁹، واعتبارها واقع اجتماعي تمثل مجموعة القوانين والقواعد العامة التي تتحكم في إنتاج الكلام³⁰ ويتمثل استثمارها نقديا، في اعتبار الأثر الأدبي (قصيدة، مسرحية، رواية...) بنية كلامية، أي إبداعا فرديا، يقع ضمن بنية لغوية أشمل، هي ديوان الشاعر، أو الأعمال المسرحية أو الروائية للمسرحي أو

الروائي، غير أن البنية الكبرى التي قد تمتد أفقياً أو عمودياً، تكون أقرب إلى مفهوم اللسان منها إلى مفهوم اللغة³¹

- ثنائية الدال والمدلول: تتضح فكرة هذه الثنائية، في اعتبار المنهج البنيوي النص الأدبي دالا كبيرا، يضم عدة أدلة أو بنى، ذات طابع مادي صرف، لأنها صور فزيائية مسموعة أو مكتوبة، يمكن تحليلها وتشريح بنياتها المادية إلى عناصرها الأساسية، كتحليل البنية الإيقاعية لنص القصيدة مثلا، أو تحليل بنيتها الصرفية أو النحوية.. لاكتشاف العلاقات والقوانين التي تتحكم فيها وتضبطها، وهي الغاية من التحليل البنيوي، لأن ضبط هذه العناصر، هو ضبط لمدلولها أو مدلولاتها (معاني النص وأفكاره)، وبالتالي يرفض البنيويون رفضا تاما، ثنائية الشكل والمضمون، لأنهما ليسا متلازمين فحسب، بل هما متحدان، ولا وجود لأحدهما دون الآخر، فهما وجهان لعملة واحدة، أو شفرتا مقص، لا تتم عملية القص إلا بهما³².

4. نموذج تطبيقي:

أحاول من خلال هذه الدراسة تحليل نص شعري تحليلا بنيويا، من خلال إيجا العلاقات بين الأنظمة النحوية والدلالية والمعجمية ودراسة الثنائيات في نظام يشمل النص الشعري كله.

أرض بلا ميعاد³³

حتى ولو رجعت يا أوديس
حتى ولو ضاقت بك الأبعاد
واحترق الدليل
في وجهك الفاجع
أو في رعبك الأنيس،
تظلّ تاريخاً من الرحيل
تظلّ في أرض بلا ميعاد،
تظلّ في أرض بلا مَعَادَ ،
حتى ولو رجعت يا أوديس

يمكن تقسيم النص إلى مقطعين بناءً على الجملة الشرطية وعلاقتها بباقي المكونات اللغوية للنص من أجل الكشف عن بنية الثنائيات المتوصل إليها من خلال هذه العلاقة، وقد استند إلى مجموعة من الثنائية ضدية تستولي على البنية الذهنية للمتلقي، وتجعله يصاب بنوع من الصدمة وهو يحاول إعادة إنتاج

العلاقات المكونة للنص واستظهار مظاهر الحركة والثبات في النص، ومن ثمة الكشف عن الرؤيا الشعرية للقصيدة.

المقطع الأول : يتمثل في الأسطر الشعرية الخمسة الأولى

حتى ولو رجعتَ يا أويس
حتى ولو ضاقت بك الأبعادُ
واحترق الدليلُ
في وجهك الفاجعِ
أو في رعبك الأنيس،

المستوى التركيبي:

تتأسس هذه المقاطع على جملة واحدة هي جملة الشرط (لو + فعل الشرط + جواب الشرط)، و تندرج تحت فعلها الأول تفرعات ثانوية، فيما يعمق فعلها الثاني بسلسلة من التكرارات، بيد أن جملة الشرط ليست مطلقة، بل محكومة بالأداة حتى، وهذه الخصيصة تمنح الشرط توترا داخليا حادا، إذ أنها فيما يبدو أنها ترجح إحدى إمكانيتي الشرط النظريتين، و هي الإمكانية الايجابية (الرجوع) تعمق نفي هذه الإمكانية مؤكدة نتيجتها السلبية سلفا: أي أنها، بكلمات أخرى، تجعل مضمون فعل الشرط ممكن التحقق نظريا، لكنها تجعل تحققها عاجزا عن تغيير شيء من الطبيعة الضمنية لجواب الشرط³⁴.

يتألف جواب الشرط من نسق ثلاثي، خاصيته الأولى هي الثبات و تعميق الثبات و السكونية (تاريخ من الرحيل، أرض بلا ميعاد، بلا مَعَاد)، و ليس فيه أي فعل للحركة، رغم أن مضمونه الأساسي هو الرحيل: و هو فعل الحركة الدائبة، فالقصيدة تكد الثبات حتى في سياق الحركة وندرك ذلك خلال وظيفة النسق في بنيتها.

المستوى الدلالي: كما أن دلالات كل من فعل الشرط(رجعت، ضاقت) تختلف ليست واحدة ، بل إنها تنقسم إلى **بديلين متضادين:** أحدهما داخلي (ينسب الفاعلية إلى الذات/ أوديس) و الآخر خارجي (ينسب الفاعلية إلى الخارج: الأبعاد/ الدليل). بيد أن البدائية، هنا، ليست فاعلية إيجابية، إذ إنها تصبح هي بدورها غير ذات معنى، لأن كلا من البديلين يقود إلى النتيجة ذاتها³⁵:

رجعت يا أوديس

البديل الأول

ضاقت بك الأبعاد

البديل الثاني

و احترق الدليل

فدلالة الأفعال (رجعت، ضاقت، احترق) فكلها أفعال تؤكد انتفاء الحركة وتعمق دلالة الثبات، كما في القصيدة ، هناك كلمة (فاجع) مشتقة من الفعل (فجع) دلالة وتصويرا لشخص مفجوع ومعذب، بمعنى دلالة ثبات المعاناة

المقطع الثاني: يتضمن على الأسطر الشعرية السادسة والسابعة والثامن

تظلّ تاريخاً من الرحيل

تظلّ في أرضٍ بلا ميعادٍ،

تظلّ في أرضٍ بلا مَعَادٍ ،

والرحيل يتحول تاريخياً، لا عملية حاضرة ودلالة الفعل الوحيد في هذا النسق هي دلالة الثبات وانتفاء التغير والزمنية (تظل...)، و يتعمق الثبات عن طريق الثنائية البارزة، الزمان/ المكان التي يعمل طرفاها الآن، لا في اتجاهين متضادين، بل في اتجاه واحد هو تأكيد السكونية، فالزمان -التاريخ- مرتبط بالثبات لا يمكن إخضاعه للتغير، و الأرض (التي تتكرر) تتجسد هنا ثباتاً مطلقاً يشد الإنسان إليه مسمراً إياه، فهي أرض بلا ميعاد، وبلا معاد، تقف معزولة عن الماضي والمستقبل، منقطعة عنهما، أي ثابتة دون قوى تستطيع أن تدخلها في سياق التغير.

دراسة الثنائيات: كما يتعمق الثبات من تنامي ثنائية ضدية أخرى هي: الأرض/ الماء، يتجسد فيها الماء (البحر، مكان الرحيل) أرضاً، أي أنه يسلب من مائيته و حركيته، و سيولته، و متغيريته، و يجمد في طبيعة صلبة، جامدة مستقرة استقراراً مطلقاً، كما يتعمق الثبات في تأسيس الثنائية الضدية ميعاد/ معاد التي تشد المستقبل/ الماضي، مكانياً وزمانياً (الميعاد نقطة زمنية في المستقبل، و مكان مستقبلي (أرض الميعاد)، و المَعَاد نقطة زمنية في الماضي ومكان ماضي (مكان الانطلاق و العودة)، أي أن هذه الثنائية تتوحد مع ثنائية التاريخ/ الأرض و بهذا التوحد تبلغ بالثبات وانتفاء الحركة النابغين من انتفاء العلاقات بالماضي والمستقبل ، فما نلاحظه أن ثنائية (الحركة والسكون) تتفرع عنها ثنائيات أخرى وهي (التحقق/اللاتحقق)، (الزمان /المكان) ،(الأرض/الماء)، (الميعاد/المعاد)، (التاريخ/الأرض) وهي ثنائيات ضدية يحكمها الثبات والسكون وتلك طبيعة المنهج البنوي.

خاتمة :

إن الحاجة إلى منهج يحدد أطر الدراسة وينظمها، دفعت الدارسين العرب والمشتغلين على الأدب العربي ونقده إلى تطبيق النموذج الغربي، فمحاولة غرس هذه النماذج المختلفة في مرجعياتها و خلفياتها الفلسفية في تربة غير تربتها الأصل، ودونما وعي بما سيحدثه هذا المنجز على المدونة النقدية العربية، صنع نقدا عربيا مُعاصرا منقطعاً مع محاولات القدامى، لا يراعي خصوصيات المنتج الإبداعي العربي، ما خلق أزمات على مستوى الفهم والتطبيق، جاعلا النقد تنظيرات أقرب إلى المعادلات الرياضية، فقضية المنهج في النقد العربي قضية منظومة مجتمعية كاملة تتساق وراء كل ما هو غربي، فالأدب ونقده يولدان الجينات الوراثية للامة المنتجة له، لا بالحلل التي يكتسبها خارجا.

وقد خلاصنا من خلال هذا البحث إلى بعض النتائج ونذكر منها:

- كاستنتاج مما سبق أن اللسانيات الحديثة أثرت على اتساع دائرة مفهوم النص وتعدد دلالاته.

- تعدد النظريات اللسانية أدى إلى تعدد المقاربات التحليلية للنصوص.

- محاولة غرس المنتج الفكري النقدي الغربي في تربة عربية، خلق مشاكل عدة على مستوى الفهم والتطبيق.

- ظهور مناهج نقدية حديثة استقطبت من اللسانيات التي حولت مسار دراسة الأدب من المناهج السياقية إلى المناهج النسقية، تهتم بالنص في حد ذاته بعيدا عن مؤثرات خارجية

الهوامش

- ¹ أحمد يوسف، القراءة النسقية سلطة البنية ووهم المحايثة ، الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف، لبنان، الجزائر، ط1، 2007، ص307
- ² عبد الرحمان الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث، مجلة اللسانيات، مركز البحوث وتريقية اللغة العربية ، جامعة الجزائر، ع1، مجمع 2؛ 1972، ص 31.
- ³ نعمان عبد الحميد بوقرة ، الدراسات اللسانية في المملكة العربية السعودية -دراسة وصفية تأصيلية في ضوء التلقي العربي- للمناهج اللسانية الحديثة، عالم الكتب الحديثة، الأردن؛ 2011، ص 14.
- ⁴ أحمد قدور، مبادئ اللسانيات، ط3، دار الفكر ،دمشق، 2008، ص11.
- ⁵ علي زوين، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1؛ 1986، ص10.
- ⁶ عبد الرحمان بدوي ، مناهج البحث اللغوي، دار النهضة العربية، القاهرة؛ 1963، ص 03.
- ⁷ محمد عبد العزيز عبد الدايم، النظرية اللغوية في التراث العربي، دار السلام للنشر والتوزيع، مصر، ط2006، ص1، 20.
- ⁸ عبد الواحد وافي ، علم اللغة، دار النهضة، ط 7؛ 1972، ص 33.
- ⁹ عبد الحميد هيمة، النص الشعري بين النقد السياقي والنقد النسقي قراءة في إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر، مجلة مقاليد، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، العدد 02، ديسمبر 2011، ص83.
- ¹⁰ مازن الوعر، دراسات لسانية تطبيقية، دار طلاس للدراسة و الترجمة و النشر، دمشق، ط، 1989، ص1.
- ¹¹ خالد سليكي: من النقد المعياري إلى التحليل اللساني (الشعرية البنيوية نموذجاً)، عالم الفكر، العدد الأول، أكتوبر، 1994، ص387.
- ¹² مازن الوعر: دراسات لسانية تطبيقية، ص 221-222.
- ¹³ بن فريحة الجيلالي، ممارسات في النقد اللساني عند عبد السلام المسدي، مجلة دراسات معاصرة، جامعة تيسمسيلت، العدد الأول، ص54.
- ¹⁴ العرابي لخضر، الأصول اللغوية للمناهج النقدية المعاصرة ،مجلة الآداب واللغات، جامعة تلمسان، العدد التاسع، ديسمبر 2005، ص247
- ¹⁵ رضوان ظاظا، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، عالم المعرفة، د ط، الكويت، 1997، ص 168-169

- 16 بن فرحات إدريس، مصطلح النقد في كتاب "الأدب وخطاب النقد" لعبد السلام المسدي، قسم الأدب العربي، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، ص11.
- 17 عبد الوهاب جعفر، البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكو، دار المعارف، القاهرة، 1989، ص02.
- 18 خليفة بوجادي خليفة، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، ص.
- 19 خليفة داود، مقارنة البنيوية اللسانية للمسألة اللغوية، مجلة أدبيات، المجلد 9، العدد 01، ص 30
- 20 ينظر: صلاح فضل، النظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الثالثة، 1987، ص34.
- 21 ينظر: صلاح فضل، النظرية البنائية في النقد الأدبي، ص34.
- 22 بشير تاويريرت، مناهج النقد الأدبي المعاصر، دراسة في الأصول والملاح والإشكالات النظرية و التطبيقية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ط، القاهرة، مصر، . 2008م، ص 19.
- 23 ينظر: المرجع نفسه، ص 20-21.
- 24 المرجع نفسه ، ص 23.
- 25 ينظر: المرجع نفسه ص 24
- 26 بريجته بارتشت، مناهج علم اللغة (من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي) ، ترجمة و تعليق: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع ، ط1 ، القاهرة؛ 1435هـ ، 2004م، ص 110.
- 27 يحيى بعيطيش ، الأصول اللسانية للمناهج النقدية الحديثة ، كلية الآداب و اللغات ، جامعة قسنطينة ، عبد الحميد بن هدوقة، 2016، ص345.
- 28 ينظر: توفيق الزيدي، أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984، ص45.
- 29 فوزية لعيوس: التحليل البنيوي للرواية العربية، دار صفاء للنشر، عمان، ط 2011 ،نقلا دي سوسير، تر: بوئيل يوسف، علم اللغة عام، ص 36.
- 30 بسام قطوس: المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، دار الوفاء لندنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط 2002 ص 127.
- 31 رولان بارت: درس السميولوجيا. تر: بن عبد العالي. دار توبقال للنشر. ط2. الدار البيضاء 1986. ص12

- 32 ينظر: يحيى بعيطيش ، الأصول اللسانية للمناهج النقدية الحديثة، ص123
- 33 ينظر، مجلة فصول النقد الادبي، المجلد الأول ، العدد الرابع ،مصر، يوليو1981،ص89
- 34 ينظر، كمال أبو ديب ،النسق والبنية ،مجلة فصول النقد الأدبي، ص 89-90
- 35 المرجع نفسه،ص91